شؤون فلسطينية

فَصليّة فِكريّة لمعَالجة أحدَاث القضيّة الفِلسطينية وشؤونها المُختَلفة تّصدُر عن مَركز الأبحاث
في منظمة التحْرير الفلسطينيَّة

العدد 294 صيف 2025

رئيس مجلس الإدارة

د.محمد اشتية

الإشراف العام

د. منتصر جرار

مدير التحرير

د.نور بدر

هيئة التحرير

د.أيمن يوسف

د.عدنان ملحم

أ.فهمي الزعارير

سكرتير التحرير

د.يحيى قاعود

2025

تاريخ الأسلحة والحرب في فلسطين
من الألف الخامس حتى القرن الخامس قبل الميلاد

د. حمدان طه*

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مسح عام لتاريخ الأسلحة وأدوات الحرب التي ظهرت في فلسطين في العصور القديمة منذ العصر الحجري الحديث (الألف الخامس ق.م.)، الذي شهد أول ظهور محقق لأدوات الحرب، مروراً بالعصر الحجري-النحاسي والعصر البرونزي والعصر الحديدي حتى (القرن الخامس ق.م)، من خلال منهج تاريخي تحليلي يعتمد على دراسة الدلائل الأثرية في السياقات الأثرية والقبور والمصادر التاريخية والمنحوتات والرسومات الجدارية والروايات الدينية.

لا شك أن المعلومات الإثنوغرافية حول الأسلحة وأدوات الحرب التقليدية في المجتمع الفلسطيني تشكل مصدراً مهمّاً للدراسة، رغم أنها تقع خارج نطاق هذه الدراسة. ويبدو أن الحرب، كوسيلة لفض النزاعات بين فريقين، ارتبطت بالصراع على الموارد والمصالح ما بين المجموعات البشرية المتنافسة أو داخلها كالحرب الأهلية. ويشمل مصطلح الحرب هنا المعارك، سواء في الجبهات المفتوحة، أو حصار المدن المحصنة[1].

أما الأسلحة، فُتعرف بكافة الأدوات المستخدمة في الحرب، سواء في الهجوم أو الدفاع. وعرف الفيلسوف الإيطالي نيكولو ميكافيلي الحرب في كتابه «فن الحرب» عام 1531م، بأن الحرب امتداد للسياسة بوسائل عنيفة[2]. أما الجنرال والمؤرخ العسكري البروسي كارل فون كلاوزفيتز، فوصف الحرب كظاهرة اجتماعية سياسية في كتابه «حول الحرب»، وعرفها بأنها مجموعة من القرارات والأفعال وردود الفعل في سياقات غير مؤكدة وخطيرة[3]. وتعتبر معركة مجدو (تل المتسلم) في مرج ابن عامر بين الجيشين المصري والتحالف الكنعاني في عام 1468ق.م أول معركة مسجلة في التاريخ[4]. وقد وصف القائد الصيني العظيم الصيني سون اتزو في القرن السادس ق.م في كتابه «فن الحرب» ظاهرة الحرب بدءاً من التخطيط والإعداد وإعلان الحرب والهجوم و موضع الجيوش وعوامل

* باحث ومؤرخ مستقل

القوة والضعف والمناورة والتكتيكات العسكرية وتحركات الجيش والاستخبارات والتجسس[5]. وجاء في الحديث النبوي «الحرب خدعة». وتطورت عبر الزمن جملة قواعد وأخلاقيات الحرب وصولاً إلى القانون الدولي الإنساني الحديث.

تمتعت فلسطين بحكم موقعها الجغرافي- الإستراتيجي كمركز للعالم القديم بين القارات الثلاث بمكانة خاصة في التاريخ الإنساني. فلم تكن معبراً للقوافل وطرق التجارة والأفكار فقط، بل كانت ممراً ومستقراً للحملات العسكرية عبر العصور القديمة أيضاً. وعلى مدار تاريخها المكتوب، شهدت فلسطين عشرات الحملات العسكرية من أيام الفراعنة المصريين والهكسوس والحثيين وشعوب البحر والفرس واليونانيين والرومان والبيزنطيين والمسلمين العرب والسلاجقة والمغول والصليبيين والعثمانيين والبريطانيين حتى الغزوة الصهيونية الأخيرة.

بعد نحو قرن ونصف قرن من البحث الأثري المنظم في فلسطين، تراكمت دلائل أثرية حول الأسلحة وأدوات الحرب التي عثر عليها في السياقات الأثرية، بما يسمح بتتبع تاريخ هذه الظاهرة. وذكرت الأسلحة وأدوات الحرب في فلسطين في معرض العديد من الدراسات العامة حول تاريخ الحرب في الشرق القديم[6]، وحظي التاريخ العسكري في مصر وبلاد الرافدين بالعديد من الدراسات حول مختلف جوانب الحياة العسكرية.

أبرز الدراسات حول الأسلحة القديمة في فلسطين ما كتبة يغئال يادين بعنوان «فنون الحرب في أرض التوراة» من جزئين، وهي قراءة من منظور توراتي متحيز للتاريخ الحربي في فلسطين، وتكاد تخلو الأدبيات التاريخية والأثرية في فلسطين من أية دراسة متخصصة باللغة العربية حول تاريخ الأسلحة وأدوات الحرب القديمة. تعتبر الأسلحة وأدوات الحرب جزءاً من السجل الأثري الفلسطيني، الذي لطالما خضع للتفسيرات الأيديولوجية للدارسين التوراتيين[7].

أشار عالم الآثار الفلسطيني ديمتري برامكي في كتابه «آثار فلسطين وعمارتها» إلى تحيز الدارسين التوراتيين في دراسة تاريخ فلسطين، فقد أولوا الاهتمام لتاريخ بضعة قرون مرتبطة افتراضيّاً بالتوراة على حساب التتابع الحضاري الطويل للإنسان الفلسطيني من ظهور الإنسان العاقل وحتى القرن العشرين[8]. ويخلص برامكي إلى أنه رغم الغزوات العديدة من قبل شتى الأقوام والأعراق الذين أجبرتهم الظروف أحياناً لتغيير معتقداتهم، فقد حافظ عنصر الشعب الأصلي على صيرورته في البلاد، ولم يتم القضاء على السكان الأصليين قضاءً مبرماً أبداً، الذين تمازجوا واندمجوا مع الذين استوطنوا البلاد[9]. وقد وفرت

التنقيبات الأثرية التي جرت في مئات المواقع الأثرية بفلسطين مصدراً مهماً حول الأسلحة التي ظهرت في السياقات الأثرية من فترات تاريخية مختلفة. وعثر على الأسلحة وأدوات الحرب في القبور على وجه الخصوص في مقابر العصر البرونزي والحديدي، التي أرفقت كجزء من عطايا الميت، وهذا ما يفسر درجة حفظها الجيدة نسبياً.

وتمدنا النصوص التاريخية المصرية والكنعانية والأكادية والصور والمنحوتات التي عثر عليها في المواقع الأثرية في فلسطين ومصر وبلاد الرافدين بمعلومات ثمينة عن الأسلحة وآلات الحرب المُستخدَمة وتطورها عبر العصور. كما تقدم سجلات الحملات العسكرية المصرية على فلسطين ووصف المعارك التي دارت رحاها على أرض فلسطين كمعركة مجدو في سهل مرج ابن عامر ومعارك الفلسطيين القدماء على الحدود المصرية مصدراً مهمّاً حول تاريخ الحرب وأنواع الأسلحة والأدوات التي استخدمت في العصر البرونزي والعصر الحديدي. وتعتبر دراسة جيمس برتشارد نصوص الشرق القديم[10] التي جمع فيها النصوص التاريخية القديمة أحد المصادر المرجعية لتاريخ الحرب في العصر البرونزي والحديدي[11]. وألقت دراسة ن. ساندرز(1978) Sandars, N.K ودوروثي دوثان (1982) (Dothan وحمدان طه (1983) المزيد من الضوء حول الفلستينيين القدماء والمعارك البرية والبحرية التي دارت رحاها عند الحدود المصرية. وتحفل الروايات الدينية بالكثير من المعلومات والقصص الميثولوجية حول الحرب والصراع، كقصة مقلاع داود والمنازلة الأسطورية الشهيرة ما بين جوليات وداود والصراع ما بين أبناء الشر وأبناء النور في أرماجيدون (Cline 2002)ومثيلاتها في الوعي الإنساني.

وقد عُثر في فلسطين والمناطق المجاورة على العديد من هذه الدلائل، بما يمكّن من تقصّي تاريخ الحرب والأسلحة، وأنواعِها وأشكالها وأسمائها، بالإضافة إلى جوانبَ أخرى مرتبطة بها، كأساليب الحرب والتكتيكات العسكرية. وقد كتب يغئال يادين دراسة موسعة حول تطور الأسلحة في الشرق القديم، معتمداً بشكل كبير على الروايات التوراتية، ولا تخفى البواعث الأيديولوجية لهذا العمل، الذي يأتي في إطار الاستحواذ الصهيوني على الرواية التاريخية لفلسطين[12].

أدوات الحرب في العصر الحجري

تعود أقدم الدلائل حول أدوات الحرب البسيطة إلى مرحلة ما قبل التاريخ، التي تُعرف بالعصر الحجري القديم والوسيط والحديث، وتشمل الفترةَ الممتدة ما بين

مليون ونصف مليون سنة إلى نحو 5 آلاف سنة قبل الوقت الحاضر. وتعود أول دلائل محققة حول الأسلحة إلى المجتمعات الزراعية الأولى في العصر الحجري الحديث. ولا شك أن الأسلحة المُستخدَمة في هذه المرحلة الطويلة من عمر الإنسان لم تتعدَّ أدوات الحرب البسيطة، كالعصِيّ (القنوة والدَّبَسة والهراوة) والحجارة، والرماح بتقنياتها المختلفة، سواء تلك التقليدية منها أو المُحَمَّلة بالسموم المستخلَصة من الحيوانات أو النباتات السامة. وقد ارتبطت هذه الوسائل القتالية تلقائياً بطرق الصيد التي مارسها الإنسان في هذه الفترة في مجرى صراعه مع الطبيعة، وتضمنت المصائد والشباك والحُفر المُموَّهة، التي ابتدعها الإنسان الأول لصيد الحيوانات الأكثر قوةً أو أكثر سرعةً من أجل السيطرة عليها. وأصبحت من حينها ذات استخدام مزدَوَج، سواء في صراع الإنسان مع الحيوانات والطبيعة عموماً، أو في صراعه مع بني جلدته الإنسان، وهي الصراعات التي تطورت في خضم تنافس الإنسان على الموارد ومناطق السيطرة الحيوية في مرحلة ما قبل التاريخ[13].

وكان القوس والنشّاب أولَ اختراع للإنسان استُخدمت فيه القوة الميكانيكية، وضوعفت فيه القدرةُ على تسديد الرماح مقارنةً بالقوة اليدوية العادية، لتصل إلى أهداف بعيدة، وتكون أكثر فاعليةً ودقة، عدا عن القدرة على إطلاقها من مسافة آمنة. ومنذ ذلك الوقت تحول القوس والنشّاب إلى أداة حرب فاعلة على امتداد التاريخ اللاحق. وفي الفترة النطوفية التي سبقت مباشرة ظهور المجتمعات الزراعية المستقرة، عثر على خنجر من حجر الصوان في أحد القبور في موقع الملاحة في حوض الحولة يمثل أول ظهور لأداة في قبر نطوفي في فلسطين[14].

وفي المجتمعات الزراعية الأولى في العصر الحجري الحديث، تعززت قيمة الأرض كمورد اقتصادي، وظهر أول التحصينات في تاريخ البشرية، مع بداية الاستقرار في مستوطنات ثابتة، على شكل قرى زراعية، ارتبطت بممارسة الزراعة وترافقت مع تدجين النبات والحيوان، والتي مكنت الإنسان من توفير فائض اقتصادي والعيش في مكان واحد، بدلاً من التنقل الدائم بحثاً عن الغذاء. ويمثل تل السلطان في أريحا نموذجاً لأول مستوطنة بشرية لسكان العصر الحجري الحديث التي اعتمد فيها الإنسان على ممارسة الزراعة وتربية الحيوانات وقد شيد الإنسان في هذه الفترة بيوتاً من اللِبْن المجفف[15]، ومارس الفن والطقوس. وكانت هذه المستوطنة البشرية في أريحا محاطةً بسور حجري ما زال جزءٌ منه محفوظاً حتى الوقت الحاضر، يصل ارتفاعُه إلى 5.75 متر ويتصل به برج

حجري دائري ضخم يصل ارتفاعُه إلى 10 أمتار بقطر 13 متراً عند مستوى القاعدة، ويعود تاريخه إلى الألف الثامن ق.م. ويصل درَج داخلي يتكون من 22 درجة من مستوى أرضية البرج إلى قمته. وعُثر على عظام بشرية في هذا الممر الصاعد قد تكون للمُدافعين عن هذا البرج. ويفسر نظام التحصينات في هذه القرية الزراعية الأولى ضرورات الحماية والدفاع عن الموارد. ويعد البرج الدائري في تل السلطان في أريحا التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث أول نموذج للتحصينات في التاريخ. ويعكس، ربما، قدراً من الصراعات الداخلية في هذه المجتمعات الزراعية المبكرة. فضلاً عن التحصن من الحيوانات المفترسة. ويمكن الافتراض أن العصِيَّ المستخلَصة من غصون الأشجار، ورمي الحجارة كانت أداةَ الحرب الرئيسية في الصراع ما بين المجموعات البشرية الأولى[16].

وفي العصر الحجري الحديث (الألف الخامس ق.م.) ظهرت الدبسة (الهراوة)، كإحدى أقدم الأدوات القتالية في الشرق القديم، ووظيفتها الرضّ والتحطيم. والدبَسة عبارة عن أداة تتكون من عصا خشبيةٍ يتصل بأحد طرفيها جسمٌ يُعرف برأس الدبَسة، من خلال ثقب في وسطها، تكون على شكل حبة الكُمثرى. وكان رأس الدبَسة يُصنع من قطعة حجرية في العصر الحجري الحديث.[17]

وفي العصر الحجري النحاسي (4500-3200 ق.م.) شاع استخدام الدبسة التي ظهرت في العصر الحجري الحديث، وأصبح رأس الدبَسة يُصنع من الحجر أو المعدن. وتم الكشف عن كرات نحاسية دائرية ومثقوبة في مغارة وادي محرس غرب البحر الميت، واستخدمت كرؤوس هراوات وعثر على ما يشابهها في الرسومات المصرية الفرعونية. وتقدم الأسلحة التقليدية الفلسطينية مثل الدبسة والهراوة والقنوة والنبوت والسيف والخنجر والطبر والمقلاع نماذج تفسيرية للأسلحة القديمة[18].

أدوات الحرب في العصر البرونزي (3200-1200 ق.م)

تطورت أدوات الحرب وفنونه بشكل جلي مع بداية مرحلة التمدن، وظهور المدن المحصنة في فلسطين في العصر البرونزي المبكر، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت تحصينات المدن تعتمد على موقعها الطبوغرافي ووفرة مصادر المياه. وتشمل عناصرُ التحصين الأسوار والبوابات والقلاع التي تضم المراكز الحيوية كقصر الحاكم والمعبد، إلى جانب أدوات الحرب المُستخدَمة في الاقتحام والحصار. وغالباً ما كان يتم اختيار الأماكن المرتفعة التي تحيط بها المنحدرات الطبيعية ويجري تعزيزُها بالأسوار المرتفعة والحصون. ومع ظهور المدن تطورت

أساليب حصار المدن، ودكّ الأسوار. والتقنيات الحربية المرتبطة بالهجوم على المدن من ناحية، والدفاع عنها من ناحية أُخرى. وتعتبر أسوار تل التل بالقرب من دير دبوان وتل الفارعة جنوب شرقي نابلس نماذج ممثلة لأسوار مدن العصر البرونزي المبكر. أما أنواع الحرب، فتراوحت ما بين المعارك في ساحات الحرب المفتوحة والحرب في المدن المحصنة[19].

وعلى صعيد الأسلحة، ظهرت العربة الحربية والخيالة وهم الفرسان على جيادهم كأهم أشكال التنظيم الحربي في العصر البرونزي المبكر. ويمكن التمييز ما بين نوعين من الأسلحة، أسلحة فردية للمواجهة وذات مدايات قصيرة تتشكل من القنوة والفأس الحربية والسيف والرمح والحربة. أما الأسلحة بعيدة المدى، فتتشكل من القوس والسهم. أما الأسلحة المستخدمة للوقاية، فهي الدرع والترس والخوذة الحربية.

وعلى امتداد العصر البرونزي المبكّر استمر استخدام الدبَسة، التي يعود أول ظهورٍ لها إلى الألف الخامس ق.م. وفي العصر البرونزي صُنع رأس الدبَسة من المعدن، واستمر استخدامُها حتى أواسط الألف الثاني ق.م.[20] وكان اختراعُ الدروع الواقية والخُوَذ في أواخر الألف الثاني ق.م لمواجهة هذا السلاح الذي تحول إلى أدوات أكثر فتكاً، كالطبر والسيف والخنجر. وقد استُبدلت بالفأس الدبَسة ذات الرأس الدائري، وهي ذاتُ رأس حاد يمكنها إحداث الجَرح والقطع. وكانت القطعة المعدنية الحادة تُربط باليد الخشبية، أو تكون ذاتَ فتحة تُثبَّت فيها، وقد عُثر على عدد من هذه الأدوات الحربية في السياقات الأثرية من الألف الثالث ق.م.

أما الأداة الرئيسية الثانية التي ظهرت في سياق الألف الثالث ق.م فهي السيف المصنوع من معدن البرونز[21]. ويتميز السيف في العصر البرونزي المبكر بأنه قصيرٌ ومستقيم وحاد من الجهتين، ويشبه إلى حد بعيد الخنجر[22]، وكان نصلُ السيف يُثبَّت بالمقبض بواسطة عصبة. وظهر في هذه الفترة الرمح، وهو على شكل السهم لكنه أكثر طولاً وثقلاً، وكان يُستخدم بواسطة قوة الدفع إلى الأمام[23]. وكافة رؤوس الرماح المكتشَفة في فلسطين حتى نهاية الألف الثالث ق.م مصنوعة على شكل ورقة نباتية، وكانت تثبَّت على قناة الرمح بواسطة عصبة. وتُظهر الرسومات الجدارية في مصر وبلاد الرافدين صوراً للعديد من الأسلحة، كالقوس والسهام والخُوَذ والعربات الحربية في هذه الفترة المبكرة. كما أظهرت الرسومات في مصر صوراً لمعارك مفتوحة وأسلحة استُخدمت في اقتحام المدن، كالسلالم وأدوات دكّ الأسوار.

وكان تأمين مصادر المياه من العناصر المهمة في الخطط التحصينية للمدن، لتمكين السكان من الوصول إليها أثناء الحصار، وتلافي سيطرة المهاجمين عليها، وذلك من خلال حفر الآبار أو من خلال شق الأنفاق السرية للوصول إلى مصادر المياه وإخفائها عن أعين الأعداء. وتمثل أنظمةُ المياه في القدس، وتل المتسلم، (مجدو) وتل القاضي، وخربة بلعمة، والجيب، نماذجَ لأنظمة المياه القديمة في فلسطين من العصرين البرونزي والحديدي.

شهد العصر البرونزي الوسيط، في الألف الثاني قبل الميلاد، ظهورَ المدن المحصنة الكبيرة[24]، مثل تل السلطان، تل المتسلم، تل تعنك، تل دوثان، تل بلاطة وتل العجول.. إلخ. وقد تميز النظام التحصيني في الألف الثاني ق.م بقوته ومنَعته، وجاء ربما، استجابةً لتطور التقنيات العسكرية وإدخال العربات القتالية في خدمة الجيوش. وتكون النظام الدفاعي للمدن الكنعانية من الأسوار الضخمة والمتاريس المائلة والبوابات التي شكلت وحدات شبه مستقلة في هذا النظام الدفاعي. وتقف أسوار تل السلطان وتل بلاطة شاهداً على عظمة تحصينات المدن في العصر البرونزي الوسيط[25]. ويبدو أن أشكال الحرب تراوحت ما بين القتال في ساحات المعارك المفتوحة أو في الهجوم والدفاع عن المدن المحصنة والنزالات الفردية، إلى جانب تعزيز التحصينات وتأمين الاتصال والاستطلاع والإمداد والتجسس وتأمين الاحتياجات الحيوية كمصادر المياه والغذاء.

وقد تطورت التقنيات العسكرية في هذه الفترة مع استخدام العربات والأحصنة كأدوات حرب أحدثت ثورة في فنون الحرب. وتشكلت الجيوش من المشاة ومقاتلي العربات، وصارت العربات القوة الضاربة للجيوش الكنعانية، وهي فيلق المركبات التي تديرها فئة اجتماعية يعملون كمحاربي عربات يطلق عليهم اسم ماريانو، ومنهم فريق النخبة الذين إطلق عليهم «نعريم». ويقاد فريق العربات من رئيس العربة، محمياً برداء مدرع، وتألفت الأسلحة الأساسية للعربة الكنعانية من القوس والرمح الثقيل والعصاة، واستخدمت العربات لاعتراض الجيوش المهاجمة في الأراضي المفتوحة قبل وصولها أسوار المدينة. أما المشاة فيتشكلون من قوات نظامية من محاربين مدربين ومحترفين أطلق عليهم «سابو- نجيت»، وقوات شبه نظامية يتم استدعاؤهم حسب الحاجة من فلاحين وعمال سخرة، وهذه القوات مسلحة بالأقواس والرماح. وكانت القوات تدار في الميدان من قبل ملك المدينة أو من يفوضه من القادة العسكريين، وكان الحكام الكنعانيون يستخدمون جنودا مرتزقة من الخابيرو أيضا[26].

أما الأسلحة الفردية الرئيسية في هذه الفترة، فكانت الفأس والسيف والرمح والحرب والبلطة، وهي مصنوعة من معدن البرونز.[27] أما الأسلحة ذات المدى الطويل، فكانت القوس والنشاب والمقلاع. ومعدات الوقاية الفردية أثناء المعارك هي الدرع والترس[28]. وتطورت تقنيات بناء الأسوار والبوابات والحصون بشكل كبير في هذه الفترة كما يظهر في مواقع تل السلطان وتل بلاطة.

وشهدت الفأس تطوراتٍ مهمةً في تصميمها، وأصبح تثبيت المقبض بالفتحة دارجاً، وظهرت رأس الفأس بفتحات على شكل العيون في بداية العصر البرونزي الوسيط الثاني[29]، وأحياناً على شكل منقار البطة، وهي البلطة الكنعانية[30]. وفي القرن الثامن عشر ق.م ظهر نوع من سلاح الفأس على شكل الإزميل. وفي العصر البرونزي الوسيط ظهر لأول مرة، السيف المقوَّس على شكل المنجل، وهو يشبه في شكله العام الفأس الذي يشكل نصلُه ومقبضه قطعةً واحدة، و ظهرت أمثلة للسيف الكنعاني المنجلي المقوس في تل بلاطة، واستُخدمت الخناجر القصيرة المستقيمة[31].

وفي بداية هذه الفترة، كان الخنجر رفيعاً كما في الفترة التي سبقته، ولكن في النصف الثاني من العصر البرونزي الوسيط، أصبح نصل الخنجر عريضاً أكثر، ويشبه الورقة المتطاولة المُدبَّبة، وذلك من أجل تقوية المقبض. كما شاع استخدام الرمح والسهم في الفترة الأولى من العصر البرونزي المبكر، وظهر نوع من الرماح يثبَّت فيه رأس السهم بالقناة بواسطة عصبة طويلة لإحكام تثبيتها. كما ظهرت الرماح ذات الرؤوس المتعددة على شكل الشوكة، تثبَّت بالقناة بنفس الطريقة، عُثر على كميات كبيرة منها في السياقات الأثرية في فلسطين. ومن الأمثلة المميزة على الأسلحة في هذه الفترة مجموعة من الأسلحة عثر عليها في تل بلاطة عام 1903، وتتكون من 16 قطعة من الأسلحة والأدوات، وتضم مجموعة من رؤوس الرماح والخناجر والسيوف، وفيها نموذج السيف المقوس على شكل المنجل بمقبضه المزخرف الذي يماثل نفس نوع السيوف المكتشفة في المقبرة الملكية في جبيل (بيبلوس) في لبنان[32].

وظهرت صور بعض هذه الأسلحة في الرسومات الجدارية لقبر الموظف خنوم-حوتب في مقبرة بني حسن في مصر من القرن الثامن عشر ق.م[33]، وتظهر فيها مجموعة من التجار الكنعانيين وهم في طريقهم إلى مصر، يحملون أسلحةً فردية، مثل الفأس على شكل منقار البطة، والقوس المزدوَج والرماح والعِصيّ[34]. ولم تظهر الدروع والخُوَذ في العصر البرونزي الوسيط، وهي الأدوات

التي ظهرت أغلب الظن في العصر البرونزي المتأخر. وفي هذه الفترة ظهرت العربات القتالية ذات الدولابين أو الأربعة دواليب التي جرها الخيول.

وشهدت هذه الفترة ظهورَ مصادرَ تاريخيةٍ مدونة، ومشاهدَ منحوتةٍ ومصورة للمعارك العسكرية في مصر وبلاد النهرين خلّدت هذه الأحداث. وسجلت المصادر التاريخية المصرية العديد من المعارك والحملات العسكرية المصرية على فلسطين في هذه الفترة، من عهد السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، (فترة حكم الفرعون المصري تحتمس الثالث وحتى مرنفتاح ما بين 1500-1200 ق.م) في حروبهم ضد الهكسوس والكنعانيين والشاسو وشعوب البحر وأرشيف ماري، وتُظهر هذه القصص أن الجيش كان مقسماً إلى وحدات بأعداد محددة من الجنود، وأصغر هذه الوحدات يتكون من عشرة جنود، وتشير هذه المصادر المبكرة إلى خوض المبارزة ما بين خصمين، كما في قصة سنوحي المصري في فلسطين، وتتضمن إشارة إلى إله الحرب منتو، ووصفاً للأسلحة المستعملة في النزال، وهي القوس والسهام والرماح والفأس الحربية[35]. ويبدو أن أدوات دك الحصون والأسوار قد استُحدثت في العصر البرونزي الوسيط. وصورت الرسومات المصرية في اللوحة الجدارية لقبر القائد انتف في طيبة من عصر الفرعون منتوحوتب الثاني مشاهد الحصار لقلاع كنعانية والأدوات العسكرية والأسلحة المستخدمة[36].

لا تختلف أسلحة العصر البرونزي المتأخر كثيراً عن الأسلحة في الفترة التي سبقتها في العصر البرونزي الوسيط. وتشكلت الأسلحة الرئيسية في هذه الفترة من الفأس والسيف والرمح والخنجر، حول مشاهد الحرب والأسلحة بين الهكسوس الكنعانيين وفراعنة السلالة 18 في مصر[37]. وتعتبر معركة مجدو التي جرت في بداية العصر البرونزي المتأخر[38]، والتي نعرض لمجرياتها إحدى أبرز المعارك المسجلة في التاريخ القديم، (انظر الفيلم[39] الوثائقي في الهامش أدناه). وتقدم معلوماتٍ ثمينةً حول الخطط العسكرية المصرية والكنعانية، والاستعدادات والتنظيم، والإدارة، وخطوط الإمداد، وظروف المعركة، وميادين القتال، وأنواع الأسلحة المستخدمة، إلى جانب وصف مجريات المعركة، وتتضمن الكثير من قوانين الحرب القديمة.

معركة مجدو: أول معركة مدونة في التاريخ

تشير الحوليات المصرية من عهد الفرعون المصري تحتمس الثالث، حوالي 1468 ق.م إلى أول وصف مكتوب في التاريخ لمعركة حربية جرت بين الجيش المصري والتحالف الكنعاني (التحالف الشمالي) التي سُجلت وقائعها على جدران

معبد الكرنك[40]، ودارت رحى هذه المعركة بالقرب من مدينة مجدو، وهو تل المتسلم الذي يقع في سهل مرج ابن عامر، بالقرب من قرية اللجون[41]. ودشن تحتمس الثالث في هذه المعركة التي خاضها ضد تحالف المدن الكنعانية أولى سنوات حكمه، محرزاً نصراً مؤزراً[42]، أمّن من خلاله السيطرة المصرية على كنعان في عهد المملكة الحديثة[43]. وكانت فلسطين تخضع للنفوذ المصري، وتشير الحملات العسكرية المصرية المتتالية على أرض كنعان إلى العلاقة المتقلبة تبعاً لضعف السلطة المركزية المصرية وتنامي النزعات الاستقلالية لدويلات المدن الكنعانية. واتخذت هذه العلاقة شكلاً من الهيمنة المصرية، ولم ترقَ إلى السيطرة المصرية المباشرة على أرض كنعان، رغم وجود بعض الحاميات العسكرية المصرية التي كان هدفها تثبيتَ سلطة الحُكام المحليين المُوالين لمصر[44].

يُستَشَف من النص بأن معركة مجدو كانت واحدةً من المعارك الفاصلة في تاريخ العلاقات ما بين مصر وكنعان[45]. ويحتوي نقش تحتمس على معلومات تاريخية وطبوغرافية ثمينة، تُلقي الضوء على الوضع السياسي والاقتصادي في فلسطين في أواسط الألف الثاني ق.م، وحسب هذا النقش، فقد شارك في الحرب ما يزيد على مئة من المدن الكنعانية، وقاد المعركة عن الجانب الشمالي ملوك قادش الواقعة على نهر العاصي وملك مجدو في مرج ابن عامر. ويُعتبر هذا أكبر تحالف لدويلات المدن الكنعانية ضد النفوذ المصري، ولا شك أن هذا التحالف كان مدعوماً من قبل المملكة الميتانية، وهي حضارة الحوريين المعاصرة للكاشيين في بابل، الذين قامت إمبراطوريتهم على أنقاض إمبراطورية حمورابي، وبلغت أوج عظمتها في القرن الخامس عشر ق.م. ويقع مركز الإمبراطورية الميتانية في المنطقة الواقعة ما بين دجلة والفرات جنوب جبل طورس، ويمتد ليشمل سورية وكردستان شمالاً، وصولاً إلى أطراف فلسطين، وهي المنطقة التي شهدت المواجهة ما بين القوتين الأعظم في الشرق القديم، وهما الإمبراطورية الميتانية والإمبراطورية المصرية في عهد الفرعون المصري أحمس[46].

يبدو أن ثورةً عارمة اندلعت في كنعان ضد النفوذ المصري من يرزا (تل جمه) جنوباً وحتى نهاية العالم، أي من حدود كنعان الجنوبية وحتى حدود السيطرة المصرية في سورية، كما جاء في مقدمة حولية تحتمس الثالث[47]. ويتضح أن الحامية المصرية حافظت على موقعها الأخير في شاروحين، وتُعرف بتل الفارعة الجنوبي، وهو نفس الموقع الذي كان محط الأنظار في خط الدفاع الهكسوسي.

ويسمح النص بتتبع المحطات الرئيسية في خط سير الحملة من مصر إلى فلسطين والتي انطلقت من سلا، وهي الحصن الحدودي المصري الرئيسي شرق الدلتا، إلى غزة عند الحدود المصرية، حيث قطع الجيش المصري مسافة 150 ميلاً في تسعة أو عشرة أيام، وهي سرعة كبيرة نسبياً، بما يشير إلى أن الجزء الجنوبي من الطريق الساحلي «فيا مارس» كان تحت السيطرة المصرية التامة، ويشير النص إلى غزة كمدينة ما زالت تقع تحت السيطرة المصرية ودورها كقاعدة عسكرية مصرية رئيسية في كنعان. وحسب تقديرات بيركاردت وصل المصريون إلى غزة بتاريخ 25 أبريل سنة 1468 ق.م، وهذا التاريخ هو عيد تتويج تحتمس الثالث، ومكث الجيش المصري مهلة قصيرة في غزة لأخذ قسط من الراحة[48].

مسار الحملة العسكرية

أما المحطة الرئيسية الثانية، فهي مدينة يخم (خربة يمنا) الواقعة في سهل سارونا، جنوب غربي سلسلة جبل الكرمل، حيث قطع الجيش المصري مسافة 75 ميلاً في أحد عشر أو اثني عشر يوماً، ما يدل على أن تقدم الحملة كان بطيئاً، ربما نتيجة المخاطر التي ينطوي عليها السير في بيئة وعرة ومعادية، بما يُملي المحافظة على التئام الجيش قدر الإمكان، وبهذا يكون الجيش المصري قد وصل إلى يخم في السابع من أيار تقريباً، وفي يخم عقد الفرعون المصري اجتماعاً تشاورياً مع قادته العسكريين لتقرير الطريق الذي سيسلكه الجيش المصري من سهل سارونا إلى سهل مرج ابن عامر: الطريق الجنوبي الذي يُفضي إلى السهل بالقرب من تعنك ربما عبر وادي حسن شرق اليامون، أو الطريق الشمالي الذي ينطلق من سهل سارونا إلى الشمال من زفث (خربة ست ليلى) ويصل سهل مرج ابن عامر إلى الشمال من مجدو عبر وادي عارة[49]. في هذه المشاورات أوصى قادة الجيش بسلوك الطريق الجنوبي الآمن المفضي إلى السهل بالقرب من تعنك، وحذروا من مغبة سلوك الممر الضيق في أرونا، وهو معبر وادي عارة، ودعموا تخوفاتهم بمعلومات استطلاعية تفيد أن العدو يترقبهم عند مخرج الوادي.

المباغتة العسكرية

أراد تحتمس الثالث مباغتة الجيش الكنعاني، فلم يستمع إلى نصائح قادته العسكريين، وقرر سلوك أقصر الطرق عبر وادي عارة، وقطع الجيش هذا الطريق في أربعة أيام تقريباً، محققاً بهذه المجازفة العسكرية عنصرَ المباغتة ضد

قوات التحالف الكنعاني[50]. وعندما دلفت طلائعُ قواته إلى سهل مرج ابن عامر عند الظهر، وبدأ في تنظيم قطعاته عند جدول كينا، تبين له أن قوات التحالف الكنعاني قد تركت هذا المعبر الإستراتيجي دون حماية، وحينها تنفَّس تحتمس الصعداء مهلّلاً: «لقد هُزموا»، متيقناً من حسم نتيجة المعركة قبل أن تبدأ. ويعكس قلق تحتمس الشديد على مؤخرة الجيش التي استغرق وصولُها سبع ساعات تخوفَه من مبادرة التحالف الكنعاني إلى الهجوم على مقدمة جيشه، قبل استكمال تجميع قواته ونصب مخيم القيادة. أما جيش التحالف الكنعاني، فقد ارتكب خطأً استطلاعياً حربياً مُميتاً، حين أغفل حراسةَ هذا المعبر. وكان ينتظر قدوم الجيش المصري بثقة من المعبر الشرقي الآمن، ولم يتوقع أن يسلك الجيشُ المصري طريقَ وادي عارة الوعر، لتنقلب خططُه رأساً على عقب. ويباغت بالهجوم من الجهة الآمنة، وهكذا يتضح أن خطة الجيش الكنعاني انتظار الجيش المصري في السهل المفتوح، ومواجهته خارج المدينة لم تفلح، بسبب عجزه عن رصد تحرك الجيش المصري الجرار، وبسبب تشتُّت القوات على المعابر التي لم يطرقها الجيش المصري، إذ كانوا ينتظرون بكمائنهم عند المعبر الجنوبي الآمن، الأمر الذي أسهم في حسم نتيجة المعركة فعلياً قبل أن تبدأ بسبب عنصر المباغتة التي انتهجها الجيش المصري.

يبدو أن المعركة التي دارت رحاها في سهل مرج ابن عامر في الثاني عشر من أيار كانت قصيرة جداً، انتهت بانتصار مصري مبين وهزيمة مفاجئة للجيش الكنعاني. كما أن خطة الكنعانيين الحربية التي اعتمدت على العربات، لم تفلح أمام جنود الخيّالة والمشاة المصريين الأكثر قدرةً على المناورة. وتشمل قائمة الغنائم الطويلة التي استولى عليها الجيش المصري في المعسكر الكنعاني خارج أسوار المدينة 924 عربة حربية، وكمياتٍ كبيرةً من العتاد الحربي والمؤونة، تركها الجيش المنسحب خلفه[51].

مجريات المعركة

توضح النصوص القديمة أن الجيش المصري المهاجم لم يتمكن من حسم المعركة تماماً، بعد هزيمة التحالف الكنعاني في المعركة المفتوحة في السهل، وذلك لانشغال الجيش المصري بجمع الغنائم من ساحة المعركة، بما مكّن فلول الجيش الكنعاني المهزوم من إعادة تنظيم صفوفها والتراجع، ثم التحصن داخل المدينة، وهو ما أطال أمد الحرب.

ضرب الجيش المصري حصاراً مُحكماً حول المدينة حتى سقطت بعد مقاومة

دامت سبعة أشهر[52]، ويفيد النص أن المدينة كانت محاطةً بخندق دفاعي ومُسيَّجة بالخشب من أشجارها الجميلة. ويصف النص كيف قاسى سكانُ المدينة المحاصَرون، وانتهى الأمر بهم إلى الاستسلام في نهاية المطاف بعد مقاومة طويلة. ورغم أن وصف الحصار الذي ضربه الجيش المصري على المدينة كان مقتضَباً للغاية، فإنه يمكن الاستشفاف أن تحتمس الثالث كان يولي أهميةً عظيمة لفتح المدينة، ويظهر ذلك في معرض تعبئة الجيش المصري بقوله: «الاستيلاء على مجدو كالاستيلاء على ألف مدينة»، وذلك في إشارة إلى المكانة الكبيرة والمرموقة التي كانت تحظى بها مدينة مجدو بين دول المدن الكنعانية، إلى جانب غناها الذي تبدّى في قائمة الغنائم الطويلة التي استولى عليها الجيش المصري[53].

ويبدو أن تحتمس الثالث لم يكن في عجَلة من أمره، فبعد فوزه في المعركة الأولى الحاسمة، أشغل جيشه في جَنْي محصول مرج ابن عامر الناضج للقطف في هذا الموسم من السنة، معززاً إمكانيات جيشه التموينية واللوجستية[54]، ومضعفاً قدرة المحاصَرين على الصمود. ولعل هروب عدد من الجياع من المدينة إلى صفوف الجيش المصري كان الدليل على حالة اليأس للمحاصَرين نتيجة نفاد المؤونة. إن الرواية التي وصلتنا هي رواية المنتصر قطعاً، وهي رواية ليست محايِدة بأي حال، ولكن طول أمد الحصار الشامل الذي امتد سبعة أشهر كاملة، وقطع الإمدادات عنها، هي مقاومة لا يُستهان بها[55]. سيطر الجيش المصري على المدينة بعد استسلامها، والتي يبدو أنها تمت دون قيد أو شرط. وقام المصريون بإعادة ترتيب أوضاع الحكم استناداً إلى عناصر موالية، بما يضمن بقاء السيطرة المصرية، ولم يتدخلوا مباشرةً في إدارة الشؤون الداخلية للممالك الكنعانية، وتركوا أمر ذلك لدويلات المدن نفسها، مع بقاء حامية مصرية أحياناً، كما هو الحال في غزة وبيسان.

ومع سقوط مجدو، خضع الملوك الكنعانيون للسلطة المصرية مجدداً، وأقسموا بالولاء للفرعون المصري، وسيق أطفالُ الأمراء وإخوتُهم للعيش في البلاط المصري كرهائن، وكان إذا ما مات أمير إحدى المدن اعتاد الفرعون المصري أن يعيّنَ واحداً مكانه ممن تربوا في البلاط الفرعوني، ضامناً بذلك ولاءهم.

غنائم الحرب

إن قائمة الغنائم الطويلة والمفصلة التي أعدها الجيش المصري تشي بالدوافع الاقتصادية للحملة العسكرية المصرية إلى جانب الدوافع السياسية[56]، وتشمل

العتاد الحربي وممتلكات القصر الثمينة والحيوانات والمحاصيل. ويشير توقيت وصول الحملة المصرية في أيار إلى موعد نضوج وحصاد محاصيل الحبوب في سهل مرج ابن عامر. وتُحصي الحوليات ما يزيد على مئتي ألف من أكياس الحبوب التي أُرسلت إلى مصر. إضافةً إلى أعداد كبيرة من الماشية. كالأغنام والأبقار والخيول يقارب عددها 400 ألف رأس. ثم الممتلكات الثمينة من الفضة والذهب والبرونز والعاجيات والأحجار الثمينة. والتي لا بد أنها نُهبت من قصر ملك مجدو. وتعكس هذه القائمة حالةَ الثراء والرخاء التي تمتعت بها المدينة التي استفادت من موقعها في سهل مرج ابن عامر الخصيب. والذي كان بمثابة سلة غذاء فلسطين على امتداد التاريخ القديم[57]. بعد هذا الانتصار المؤزر على جيوش التحالف الكنعاني. واصل تحتمس الثالث تقدمه نحو صور. وفي طريقه استولى على مدن ينعمو ونوجس بالقرب من حلب ومرنكارو. وهكذا نجح في تحطيم الجناح الغربي للتحالف الشمالي. ثم أخذ يتقدم صوب المرافئ التقليدية التي تطل على البحر الأبيض المتوسط لتأمين التجارة البحرية.

القوائم الطبوغرافية للمدن الفلسطينية

وتكمن الأهمية الخاصة لهذا النص. وهو أول سجل معروف لمعركة في التاريخ[58]. في احتوائه على أقدم القوائم الطبوغرافية بأسماء الأماكن في فلسطين وسوريا. ويحتوي على 119 اسماً للأماكن التي سيطر عليها الفرعون المصري. بعد نصره في معركة مجدو. وتشكل هذه القائمة أساساً لتعريف الأسماء التاريخية. وقد حذا الفراعنة المصريون. بعد ذلك. من المملكة الثامنة عشرة وحتى المملكة العشرين. حذوَ تحتمس الثالث في تخليد أعمالهم وانتصاراتهم الحربية. وهكذا أسهم خلفاؤه وهم سيتي الأول ورعمسيس الثاني في معارفنا الطبوغرافية حول فلسطين في العصر البرونزي. ويبدو أن تتبع سير الحملة محفوظ في هذه القائمة. رغم أن قائمة المدن لا تتبع بالضرورة تسلسل سقوطها[59].

ومن أبرز أسماء الأماكن في فلسطين وسوريا: تل المتسلم (مجدو) وتل القاضي (ولايش) وتل القدح (حاصور) وتل العريمة (كينيرت) وتعنك (تل تعنك) وخربة بلعمة (ابليعام) وتل الفخار و(عكا) وقرن حطين (أدامـا) والعفولة و(عوفرا) ويافا (جوبا) وتل الصافي (جات) واللد وكفر عانه (أونو) وتل راس العين (أفيق) وخربة شويكة الراس (سوكو) وتل أبو شوشة (جيزر) وبيسان (تل الحصن) وتل قسيس (هلكاث) وتل قيمون (يوكنعام).

أدوات الحرب في العصر الحديدي (1200-580 ق.م)

شهد العصر الحديدي الذي يمتد ما بين بداية القرن الثاني عشر ق.م وحتى بداية القرن الخامس ق.م نقلة كبيرة في أساليب وفنون الحرب، وقد تطورت تقنيات الدفاع كبناء الأسوار والبوابات والحصون، وشهدت هذه الفترة ظهور العبرانيين والفلسطينيين القدماء على مسرح الأحداث[60]. وظهرت الجيوش بأسلحتها المتنوعة، كسلاح المشاة والفرسان وفيالق العربات الحربية، والرماة وضاربي المقلاع، وتلك الأدوات والأسلحة المتعلقة بالدفاع عن الحصون أو اختراقها، مثل أكباش دك الأسوار وتسلقها أثناء الحصار، وتأمين خطوط الإمداد والاتصال والغذاء والماء، والحرب النفسية[61].

استمر استخدام الأسلحة الكنعانية المعروفة في العصر البرونزي، كالسيف والفأس والرمح والحربة، ومع شيوع استخدام معدن الحديد في صناعة الأسلحة في هذه الفترة، صنعت الأسلحة الحديدية المستخدَمة كالفأس، وهي الأداة التي ظهرت في العصر البرونزي المتأخر، ومع مرور الوقت استُخدمت الفأس ذات الفتحات، وغالباً ما ظهرت كأدوات عمل لقطع الأشجار والحَفر. كما استمر استخدام السيف الطويل عريض النصل من العصر البرونزي المتأخر في هذه الفترة، وشاع استخدام الرمح والنبال، سواء تلك المثقوبة أو على شكل الورقة النباتية[62]، وتتسم هذه الفترة بغنى رسوماتها التصويرية والمصادر المكتوبة حول الحرب والمعارك.

المعارك مع شعوب البحر

تُعتبر المصادر المصرية أحد أهم المصادر التاريخية، خصوصاً المعارك مع شعوب البحر في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م[63]، ومنذ بداية القرن التاسع ق.م، توفر المصادر الآشورية الكثير من المعلومات حول الحروب التي خاضتها[64]. ورغم أن المصادر المصرية والآشورية تخلّد انتصاراتها، فهي تقدم الكثير من المعلومات حول ميادين المعارك، وأنواع الأسلحة والتكتيكات العسكرية للجيوش التي تواجهها أيضاً. ويتبين أن القوس المعروف في الفترات السابقة ما زال قيد الاستخدام في العصر الحديدي، مع اختلاف تصميم السهم المستخدم، فهو ذو عمود فقري مسطَّح، بالمقارنة مع سهام العصر البرونزي المتأخر. وفي هذه الفترة شاع استخدام المقلاع، كما تفيد الرواية التوراتية حول المواجهة الأسطورية ما بين جوليات الفلسطيني وداود. ويبدو أن هذه الأداة الحربية استُخدمت من قبل الجيوش الآرامية ثم الآشورية منذ القرن العاشر ق.م،

كما استُخدمت الدروع والخُوَذ النحاسية في هذه الفترة أيضاً. وتشير المصادر التاريخية إلى أن العربات ما زالت قيد الاستخدام في العصر الحديدي، وهي ذات ثمانية دواليب تجرها أربعة خيول، وتتسع لأربعة محاربين[65].

وتقدم المصادر المصرية في بداية هذه الفترة وصفاً للمعارك التي خاضتها مصر ضد شعوب البحر والفلسطيين. وقد ذُكر الفلسطيون في المصادر التاريخية المصرية منذ بداية القرن الثاني عشر ق.م. باسم بيليست، التي وردت ضمن مجموعات شعوب البحر المسجلة على جدران المعبد الكبير بمدينة الحبة في مصر، وذكر في معرض وصف رعمسيس الثالث لحربه ضد هؤلاء، وحفل هذا الوصف بصور المتحاربين، ومن بينهم الفلسطيون الذين كانوا يشكلون العصب الرئيسي لجماعات شعوب البحر. وتُحصي نقوش مدينة الحبة حروب رعمسيس الثالث ضد قبائل شعوب البحر، في السنة الخامسة من حكمه 1189 ق.م التي قامت بالغزو البري والبحري الكبير في السنة الثامنة من حكمه 1186 ق.م[66]. ويكشف هذا الغزو عن تحالف جديد من الشماليين جرى وصفُه وتصويره في مدينة الحبة. ويمكن الاستنتاج من نقوش السنة الثامنة وصورها أن الصدام العسكري مع الجيش المصري اتخذ شكل معركة برية وأُخرى بحرية[67].

المعركة البرية

يصف رعمسيس الثالث بداية سير المعارك بالقول: «حاكت البلدان الأجنبية مؤامرةً في جزرها، فماج سكان اليابسة دفعةً واحدة، ودبَّ في نفوسهم الهلع، ولم تقوَ أيُّ أرض على الثبات أمام جيوشهم من خاتي وكود وكركميش وأرزاوا وألاشيا، وأقاموا معسكرهم في أمور»[68]. ثم ينتقل النص إلى ذكر المجموعات المتحاربة: «لقد زحفوا قدماً صوب مصر، وكان اللهب معداً لهم، وكان تحالفهم من بيليست وتيكر وشكيلش ودنين ووشيش، وهم أقوام متحالفة بسطوا نفوذهم على الأرض التي ساروا فوقها وقلوبهم مطمئنة بأن خطتهم ستنجح» . ويصف استعداداته العسكرية للمعركة بالقول: «لقد حصنتُ حدودي وحشدتُ أمامهم الأمراء وقادةَ الحاميات، وجعلتُ مصبَّ النهر (دلتا النيل) متأهباً كَسورٍ منيع بسفن الحرب، وهي سفن تعجّ من المقدمة إلى المؤخرة بمقاتلين أشداء، بكامل عدتهم، وأعلنتُ النفير العام في مصر، وكان الرجال يزأرون كالأسود على قمم الجبال، وضم محاربو العربات سائقين مختارين من أفضل وأبسل المقاتلين، أما أولئك الذين وصلوا إلى حدودي فأرواحُهم أُزهقت إلى الأبد».

وإلى جانب ما جاء في وصف المعركة البرية، تُظهر صورُ المعركة جنودَ الجيش

المصري يعتمرون خوذاً يعلوها قرنان، وفي الجانب الآخر تُظهر المهاجمين وهم يقاتلون على عربات على الطريقة الحثية، كل ثلاثة في عربة، في حين أن العربة المصرية فيها اثنان فقط، السائق ومحارب آخر. وعلى جدران المعبد يظهر شعوب البحر حليقي الوجوه، يعتمرون غطاءَ رأس مميزاً، مصنوعاً من دوائر من القصب مثبتاً بواسطة شريط مشدود تحت الذقن.

المعركة البحرية

يمكن الاستدلال من نقوش مدينة الحبة أن المعركة قد جرت هي الأُخرى على مدخل مصر نفسها، حيث جرى صد المهاجمين ووقف تقدمهم. وتصف الكتابات المعركة البحرية بالقول: «أما أولئك الذين أتوا قدماً متحدّين عبر البحر، فكان اللهب أمامهم عند مصب النهر، وسياجٌ من الرماح تحيط بهم على الشاطئ، لقد استُدرجوا إليها وحوصروا ثم أُنهكوا على الشاطئ وتحولوا إلى أكوام من الجثث، كما أن سفنهم وبضائعهم غرقت في البحر»[69]. ثم تُجمل النصوص نتائج المعركة البحرية بالقول: «ارتجفت أجساد الشماليين من بيليست وتيكر الذين جاءوا من أرضهم، وأُزهقت أرواحُهم، وهم محاربو عربات على البر ومجموعة أُخرى في البحر. أما الذين وصلوا براً فقد دُحروا وهُزموا، فأمون-رع كان لهم بالمرصاد. أما الذين دخلوا مصب النهر فمثل الطيور التي علقت بالشبكة، لقد ذُبح قادتُهم وهُزموا، وأُسقط في أيديهم».

وظهرت صور المعركة البحرية بين شعوب البحر والجيش المصري على الجدار الشمالي للمعبد الكبير في مدينة الحبة (هابو)، وتحت مشاهد المعركة ظهر الفلسطيون في أصفادهم، وتبدو سفن شعوب البحر لأول وهلة جديدة ومبتكَرة، لكنها في الحقيقة لا تختلف كثيراً عن قوارب النيل التقليدية المصرية، ويكمن الاختلاف بينها وبين السفن المصرية في أن الأولى تظهر بدون مجاذيف وذات مقدمة على شكل رأس الطائر، في حين أن مقدمة السفن المصرية على شكل رأس الأسد. وفي مشاهد المعركة البحرية يظهر المحارب الفلسطيني حاملاً زوجاً من الرماح وسيفاً مستقيماً ذا نصلين، إضافةً إلى الدرع الدائري المميز والمختلف عن الدرع المصري.[70]

كما ذكر الفلسطيون مع القبائل الأخرى في بردية هاريس التي يعود تاريخها الى أواخر حكم رعمسيس الثالث، والتي جاء فيها على لسان رعمسيس «لقد وسعت جميع حدود مصر وقهرت هؤلاء الذين هاجموها وذبحت دنين في جزرهم وأحلت تيكر وبيليست رماداً، أما شردانا ووشيش فلم يعد لهما

وجود. لقد استسلموا جميعاً ووقعوا في الأسر في مصر كرمال الشاطئ ثم أسكنتهم في حاميات تحمي باسمي، أما مراتبهم العسكرية فتصل إلى مئات الألوف، وقد خصصت لهم جميعاً جرايات وملابس وهبات من الخزائن والاهراءات كل سنة».[71]

وفي إطار الصراعات الداخلية بين الإثنيات المختلفة في فلسطين، يرد ذكر الفلسطيين وتحالف مدنهم الخمس (البنتابولس) والمكونة من غزة وعسقلان وأسدود وجات وعقرون في العهد القديم، وكان على رأس كل مدينة حاكم «سيرين»[72]. ويتضح من خلال الروايات التوراتية أن الفلسطيين كانوا العامل المسيطر في حياة فلسطين طوال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م.. ويعزو البعض هذا النجاح إلى تنظيمهم العسكري الرفيع ضمن أطر تحالف المدن الخمس، ثم أساليب قتالهم المتطورة وأسلحتهم الجديدة[73]. وتتحدث التوراة عن فصول الصراع بين الفلسطيين والعبرانيين، وجاءت الإشارات متناقضة بما يترك ظِلالاً من الشك حول مصداقيتها التاريخية، التي لا بد أن تُفهم كأساطير وتقاليدَ شفويةٍ وليس كمصدر تاريخي[74]. وتُجسد قصة هدم المعبد الفلسطيني من قبل شمشون والنزال ما بين جوليات وداود بعداً رمزياً لهذا الصراع حفظ في الذاكرة الإنسانية. وقد دفع الوصف التوراتي للفلسطيين بعدد من الدارسين[75] إلى اعتبار التنظيم الاجتماعي للفلسطيين شكلاً من أشكال الأرستقراطية العسكرية، ولكن دلائل حضارتهم المادية المنسوبة للفلسطيين تعتبر امتداداً تلقائيًا للحضارة الكنعانية التي سبقتها، تشير إلى تفاعل وتداخل عميقين بما لا يتأتى لأي أرستقراطية عسكرية أن تفرزه[76].

تميزت العمارة العسكرية في العصر الحديدي الأول ببساطتها مقارنةً بالعصر الحديدي الثاني، وتتكون عموماً من الأسوار والأبراج والحصون. ويمكن التمييز ما بين نوعين من الأسوار المتعاصرة في العصر الحديدي الأول؛ وهما الأسوار المزدوجة والأسوار الضخمة. ويتكون السور المزدوج من جدارين: جدار داخلي وآخر خارجي، ويفصل بين هذين الجدارين خطٌ من التجاويف المغلقة أو المفتوحة، وذلك من أجل زيادة المَنَعة وللتعويض عن قلة السماكة[77]. ونسب عالمُ الآثار الأميركي بول لاب هذا النظام الدفاعي للفلسطيين[78]، وظهرت الأسوار من هذا الطراز في العصرين البرونزي الوسيط والمتأخر في تل تعنك وتل بلاطة، واستمر استخدامها حتى نهاية العصر الحديدي الثاني، وظهرت في سبسطية وتل وقاص وتل قصيلة.

وتُظهر المصادر الآشورية في هذا الفترة آلات حصار لدكّ الحصون والأسوار والبوابات المنيعة، وهي على شكل أبراج من الخشب أو الحديد، تسير على عجلات، يكون فيها رماةُ السهام والمهاجمون. وفي مقدمتها أعمدة من الخشب برأس معدني لدكّ الأسوار. وتقدم نقوشُ سنحاريب وصفَ حصار مدينة لاخيش (تل الدوير) في القرن الثامن ق.م نموذجاً لحصار المدن في العصر الحديدي الثاني، وهي تصف الحصار والتحصينات والمحاربين والأسلحة المُستخدمة. وأظهرت تنقيبات تل الدوير أن المدينة قد دُمرت في الفترة الآشورية، وأنها وُجدت مغطاةً بطبقة من الرماد، وأن الأسلحة التي عُثر عليها في الموقع مثل النبال تروي جانباً من قصة المعركة[79].

وكان لصناعة الحديد أثر إستراتيجي في الصراعات العسكرية لما له من أهمية في صناعة الأسلحة، وينسب العديد من الباحثين إدخال استعمال معدن الحديد في فلسطين للفلسطيين[80]، على أساس بعض الروايات التوراتية الغامضة، وهي تشير إلى احتكار الفلسطيين له، وأنهم استعملوا الأسلحة الحديدية قبل العبرانيين[81]. علماً أن المصادر التاريخية تشير إلى احتكار الحثيين لصناعة الحديد حتى سقوط الإمبراطورية الحثية حوالي 1200 ق. م.. [82]ويبدو أن معدن الحديد قد أصبح قيد الاستخدام منذ بداية القرن الثاني عشر ق.م، وأنه حلَّ محل النحاس والبرونز في صناعة الأواني والأسلحة بشكل تدريجي، وتزايد استخدامُه في القرن الحادي عشر ق.م بشكل ملحوظ. ومع بداية القرن العاشر ق.م، أصبح المعدنَ الرئيسي في صناعة الأسلحة الحربة والأدوات الزراعية، كرؤوس المحاريث والمناجل. و وُجدت أسلحةٌ حديدية كالسيوف والخناجر في العديد من مواقع العصر الحديدي[83]. كما وُجدت أفرانُ صهر معدن الحديد في عدد من مواقع العصر الحديدي.

وفي سياق الحملات العسكرية الآشورية على فلسطين في العصر الحديدي الثاني، ذُكر الفلسطيون أيضاً في المصادر الأشورية منذ القرن الثامن ق.م، وأُطلق اسم «أرض الفلسطيين» على الجزء الجنوبي من فلسطين، وأصبحت (فلسطيا) مقاطعةً آشورية منذ أواخر القرن الثامن ق.م. وجاء ذكر الفلسطيين في الحوليات الآشورية منذ عهد حدد - نيراري الثالث (812-788 ق.م). وفي حملة تغلت - بيلسر الثالث (745-727 ق.م)[84] على فنيقيا وفلسطين ذكرت أسماء الممالك التابعة للآشوريين، منها ملك عسقلان وغزة[85]، وجرت الحملة الآشورية الأولى على فلسطيا، وتصف مسلة بازلتية وُجدت في أسدود حملة سرجون الثاني على المدينة سنة 713 ق.م[86]. ويبدو أن موقع فلسطين على طريق البحر

وإشرافها على الطريق التجاري الدولي وطريق الحملات العسكرية العابرة من مصر إلى الشمال، إضافةً إلى امتلاكها موانئَ ملائمة، قد جعلها هدفاً طبيعياً لهذه الحملات. ورغم السيطرة الآشورية، تمكنت المدن الفلسطية من المحافظة على استقلالها نسبياً. وهناك وصف حصار مدينة تل الدوير (الخيش القديمة) سنة 701 ق.م. من قبل الملك الأشوري سنحاريب (705 - 681 ق.م.) ورسومات مفصلة لأدوات الحرب وتشمل (الأقواس والرماح والعربات والكبابيش)، جميعها منحوتة على جدران القصر في مدينة نينوى العاصمة الآشورية آنذاك (الآن في المتحف البريطاني).

خلاصة

قدمت الدراسة مسحاً أولياً لتطور الأسلحة وأدوات الحرب عبر العصور القديمة، من بداية العصر الحجري وحتى نهاية العصر الحديدي، وأشارت إلى أول ظهور مؤكد للأسلحة في أواخر العصر الحجري التي تميزت بالبساطة ولم تتجاوز العصي والرماح والقوس التي ظهرت ربما كأدوت للصيد في البداية وتطورت استخداماتها في الصراع ما بين المجتمعات الصيادة وحتى ظهور المجتمعات الزراعية الأولى في العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي. وكيفة تطوير الأسلحة وأدوات الحرب مع بداية المجتمعات المدينية في فلسطين في بداية الألف الثالث قبل الميلاد التي تميزت بظهور المدن المحصنة وما أملته من تقنيات جديدة في الدفاع والهجوم، و ظهرت الأسلحة الجديدة المعدنية كالسيف والطبر والخنجر والرمح بكافة أشكالها.

وشهد العصر البرونزي الوسيط الثاني في الألف الثاني ق.م. نقلة نوعية كبيرة في الأسلحة وأدوات الحرب وتكتيكاتها، وظهرت أنماط جديدة من الأسوار الدفاعية للمدن المحصنة التي تقف أسوار مدينة أريحا وتل بلاطة شاهداً أثرياً عليها، كما استخدمت العربات الحربية التي تجرها الخيول في الحرب، وتقدم معركة مجدو التي دارت رحاها في سهل مرج ابن عامر سجلاً نادراً حول الخطط الحربية والتكتيكات العسكرية التي استخدمها الجيش المصري، وأدوات الحرب المستخدمة من قبل الجيشين المصري والكنعاني، وتقدم جدران معبد الكرنك تسجيلاً للمعركة البحرية والبرية مع شعوب البحر في القرن الثاني عشر ق.م. ووصفاً للسفن والعربات الحربية والأسلحة المستخدمة، ووصفت الدراسة بشكل مختصر الحملات العسكرية التي شنها الآشوريون على فلسطين وتحولها إلى مقاطعة آشورية، بما في ذلك وصف حصار مدن

عسقلان وتل الدوير (لاخيش) والأسلحة المستخدمة في هذه الحروب. وتوقفت عند نهاية العصر الحديدي الثاني وبداية الفارسية والكلاسيكية التي شهدت تطورات كبرى في صناعة الأسلحة وأساليب الحرب وأدواتها. نأمل معالجتها في جزء ثانٍ من هذه الدراسة.

الهوامش

1 الحروب، إسحق (2015). أطلس التراث الريفي، ديار للنشر، بيت لحم.

2 Machiauel Nicholas, (1573). The Art of War. English translation by Peter VVithorne,1819

3 Clausewitz, Carl von (2010). Vom Kriege. Berlin: Ullstein-Verlag.

4 طه، حمدان (1999). من هم الفلسطينيون؟. الكرمل، عدد 58، الصفحات: 206-189.

5 أتزو، سون (2010). فن الحرب، تقديم وتعليق أحمد ناصيف، المراجعة اللغوية والتدقيق، طه عبد الرؤوف أسعد، دار الكتاب العربي للنشر، حلب (الطبعة الأولى).

6 مرجع:

Keegan, John (1993). The History of Warfare. Key Porter Books.

Trevor, N. Dupuy (1990). Evolution of Weapons and Warfare. Grand Central Publishing (March 22, 1990).

7 Yadin, Y.)1963(. The Art of Warfare in the Biblical Lands, Vols. 1-2. MacGrew-Hill Book Company, New York, London.

8 Baramki, D, (1969). The Art and Architecture of Ancient Palestine. Beirut: PLO Research Centre, p iv.

9 Ibid, p239.

10 Pritchard, J.P. (ed.). (1969). The Ancient Near East, Vol. I: An Anthology of Texts and Pictures. Princeton University Press.

11 للمزيد من المعلومات حول المعارك البرية والبحرية التي خاضها «الفلستينيون» القدماء يمكن العودة للدراسات التي تناولت تلك الحقبة وهي:

Ibid, Keegan, John. (1993).

Sandars, N.K (1978). The Sea Peoples: Warriors of the Ancient Mediterranean. Thames and Hudson, London (Revised edition).

Dothan, T (1982). The Philistines and Their Material Culture. Israel Exploration Society.

Cline, E (2002). The Battles of Armageddon: Megiddo and the Jezreel Valley from the Bronze Age to the Nuclear Age. University of Michigan Press.

طه، حمدان (1983). تاريخ الفلستيين وحضارتهم في العصر الحديدي المبكر (1200-1000 ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الآثار في الجامعة الأردنية، عمان.

12 Ibid, Yadin, Y. (1963).

13 Ibid, Yadin, Y. (1963).

14 Wright, G.A (1978). Social Differentaion in the Early Natufian. In Social Archaeology Beyond Subsistence and Dating, edited by C.L. Redman, W. Longhorne et al. New York, p219.

15 طه، حمدان (2011). أريحا تاريخ حي عشرة آلاف سنة من الحضارة. وزارة السياحة والآثار، دائرة الآثار والتراث الثقافي، رام الله.

16 Ibid, Yadin, Y. (1963). P34-32.

17 للاستزادة راجع:

- Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(. Archaeological Encyclopedia of the Holy Land. Continuum, London, p531.
- Ibid, Yadin, Y. (1963). P40.

18 مرجع سابق، الحروب، إسحق (2015). ص118.

19 Ibid, Yadin, Y. (1963).

20 للاستزادة راجع:

- Ibid, Yadin, Y. (1963). P48-49.

- Ibid, Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(. P531.

21 Ibid, Yadin, Y. (1963). P44.

22 حلايقة، عصام (2024). التراث اللغوي الكنعاني من فلسطين، شركة الناشر للدعاية والإعلان، رام الله والبيرة، فلسطين، ص 280.

23 راجع:

- Ibid, Yadin, Y. (1963). P45.
- Ibid, Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(. P532.

24 Kempinski, A., 1992, The Architecture of Ancient Israel, Jerusalem, Israel Exploration Society, p127-142.

25 مرجع سابق، حلايقة، عصام (2024)، ص 265-267

26 المرجع السابق، ص 275-297.

27 للاستزادة راجع:

- Ibid, Yadin, Y. (1963). P59-61.
- Ibid, Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(. P532.

28 Ibid, Yadin, Y. (1963). 48-49.

29 Ibid, P41-42.

30 مرجع سابق، حلايقة، عصام (2024)، ص 157.

31 المرجع السابق، ص278.

32 طه، حمدان، خيرت فان، دير كوي (2014). حديقة تل بلاطة الأثرية، دليل الموقع، منشورات مشروع حديقة تل بلاطة الأثرية، وزارة السياحة والآثار، دائرة الآثار والتراث الثقافي، رام الله، ص31.

33 Aharoni, Y)1982(. The Archaeology of the Land of Israel from Prehistoric Beginnings to the End of the First Temple Period. London: SCM Press Ltd. p 134.

34 مرجع سابق، حلايقة، عصام (2024)، ص211.

35 Wilson, J (1969). Egyptian Myths and Mortuary Texts, pp. 18-22 in James, p20.

36 مرجع سابق، حلايقة، عصام (2024)، ص 391.

37 للاستزادة راجع:

- محاضرة Tom Wukitsch وعرض حول الفراعنة الملهمين في دورة تدريبية عن مصر القديمة الصور والنقوش على الرابط: https://2u.pw/JX2Zi

38 Nelson, Harold Hayden (1913). The Battle of Megiddo. University of Chicago Press.

39 The Battle of Megiddo - Ancient Egypt, https://www.youtube.com/watch?v=AYUjFRVYNv4

40 Lange, K., and M. Hirmer, with contributions by E. Otto and Ch. Desroche-Nobelcourt. 1955. Aegypten: Architektur, Plastik, Malerei in Drei Jahrtausenden. Munich: Hirmer Verlag, 1985.

41 للاستزادة راجع:

- Lamon, R (1935). The Megiddo Water System. Oriental Institute Publication 32, University of Chicago Press.
- Lamon, R., and G. M. Shipton (1939). Megiddo I. Seasons of 1925-34: Strata I-V. Oriental Institute Publication 42, Oriental Institute of Chicago.
- Loud, G (1939). The Megiddo Ivories. Oriental Institute Publication 52, University of Chicago Press.
- Davies, G (1986). Megiddo. Lutterworth Press.
- Davis, Paul (1999). 100 Decisive Battles from Ancient Times to the Present: The World's Major Battles and How They Shaped History. Oxford University Press.
- Watzinger, C (1929). Tell el-Mutesellim (Die Funde). Leipzig.
- Zarzecki-Peleg, A (2016). Yadin's Expedition to Megiddo - Final Report of the Archaeological

Excavations (1960, 1966, 1967, and 1971/2 Seasons, Vols. I & II). Jerusalem: Israel Exploration Society - Qedem no. 56, Institute of Archaeology, The Hebrew University of Jerusalem.

42 Redford, Donald B (2003). The Wars in Syria and Palestine of Thutmose III. Brill.

43 جرمال، نيقولا (1991). تاريخ مصر القديمة، ترجمة زكية طبوزادة، تحرير ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ص 274.

44 Ibid, Wilson, J (1969).

45

- Ibid, Wilson, J (1969).
- Ibid, Nelson, Harold Hayden (1913).

46 مرجع سابق، جرمال، نيقولا (1991). ص274.

47 راجع:

- Ibid, Aharoni, Y)1979 (.
- Kenyon, Kathlyeen, M. .)1979(Praeger, New York.
- Albright, W. F)1949(. The Archaeology of Palestine. Pelican Books.

48 مرجع سابق، طه، حمدان (1999). ص241.

49 المرجع السابق، ص242.

50 راجع:

- مرجع سابق، طه، حمدان (1999). ص242.
- Ibid, Wilson, J (1969).
- Ibid, Nelson, Harold Hayden (1913).

51 طه، حمدان (1999). من هم الفلسطينيون؟. الكرمل، عدد 58، الصفحات: 206-189، ص 242.

52 Ibid, Wilson, J (1969).

53 مرجع سابق، طه، حمدان (1999). ص 242.

54 Ibid, Wilson, J (1969).

55 مرجع سابق، طه، حمدان (1999). ص243.

56

- Ibid, Wilson, J (1969).
- Ibid, Nelson, Harold Hayden (1913).

57 مرجع سابق، طه، حمدان (1999). ص248.

58 Ibid, Nelson, Harold Hayden (1913).

59 راجع:

- Aharoni, Y)1979 (. The Land of the Bible: A Historical Geography. Westminster, John Knox Press.
- Ahituv, Sh (1984). Cannanite toponyms in ancient Egyptian documents. Magnes Press, Hebrew University, p12-13.
-

60 للاستزادة راجع:

- مرجع سابق، طه، حمدان (1999).
- مرجع سابق، طه، حمدان (1983).

61 Ibid, Yadin, Y. (1963).

62 راجع:

- Ibid, Yadin, Y. (1963).

- Ibid, Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(.

63 Pritchard, J.P. (ed.). (1969). P262.

64 Macalister, R.A (1914). The Philistines, Their History and Civilizations. London, p64-65.

65 Ibid, Negev, A., and Sh. Gibson.)2001(.

66

- Barnett, R.D. (1969). The Sea Peoples. Cambridge Ancient History, Vol. II Chap. 28.
- Ibid, Sandars, N.K (1978).
- Ibid, Macalister, R.A (1914).

67 طه، حمدان (2000). معركة مجدو، الكرمل، عدد 61، الصفحات: 249-240.

68 Ibid, Pritchard, J.P. (ed.). (1969). P 262.

69 Pritchard, J.P. (ed.). (1969). P 260-262

70

Ibid, Sandars, N.K (1978). P125.
Ibid, Dothan, T. (1982). P3.

71 راجع:

- Pritchard, J.P. (ed.). (1969). P 262.

72

- Ibid, Sandars, N.K (1978). P166.
- Ibid, Dothan, T. (1982). P18.

73 Ibid, Aharoni, Y)1979 (. P 273-274.

74 مرجع سابق، طه، حمدان (2000).

75

- Ibid, Sandars, N.K (1978). P125
- Ibid, Dothan, T. (1982). P19.

76 مرجع سابق، طه، حمدان (2000).

77 المرجع السابق

78 Lapp, N (1976). Casemate Walls in Palestine and Late Iron II Casemate at Tell el-Ful (Gibeah), BASOR 223: pp 25-42, p25.

79 مرجع سابق، طه، حمدان (2000).

80 Ibid, Sandars, N.K (1978). P174.

81 Ibid, Aharoni, Y)1979 (. P252-253.

82 Ibid, Albright, W. F)1949(. P110.

83 Ibid, Dothan, T. (1982). P1.

84 Ibid, Macalister, R.A (1914). P63.

85 Tadmor, H (1966). Philistia under Assyrian Rule, BA 29: pp 86-103, p88-89.

86 Ibid, Macalister, R.A (1914). P65.